العقل الملحد ـ الثانى ـ فهو عقل ملعون ويستحق أن يعاقب ونطلق عليه الحية ـ الحية بمعناها الخبيثة ـ لأن الحية بمعناها البرونزى قد أعطيت لموسى. وهذا العقاب من الله للعقل الثانى لأنه روح تقدم كل مصادر الشهوة بدلًا من أن تقدم الفضيلة، فهو يستخدم كل المقومات لإنتاج هذه الشرور والرذائل[1].

ونهاية، فإن هناك ثلاثة عقول، العقل الأول هو العقل الذى يهب القوة والنعمة للعقل الثانى والثالث، اللذان يعدان متضادان بعضهما البعض فالأول منهما ملحد والأخر مؤمن، وعليه فكلاهما يُعطى حية تتناسب وصفاته فالملحد يطلق عليه الحية الخبيثة التى تسعى على بطنها، لأن مركز الشرور فى البطن والمؤمن يسمى بالحية البرونزية لأنه يحاول أن يدرك الطريق الصحيح نحو الإله. وهذا التصنيف الذى وضعه فيلون للعقول قد نتج عن نوعى الهروب ـ الهروب بالمعنى الأول. الهروب من الرب ـ والهروب الثانيـ الهروب إلى الله. وهذا الهروب الأخير مثل طريقًا جديدًا للخلاص بجانب الطريق الأخر وهو ضبط النفس. وهذه الأبعاد فى مجملها كونت طريقًا يهوديًا فلسفيًا جديدًا نحو الخلاص. ومدى تجديدها وجديتها يمكن أن يلحظ من خلال الرجوع أصول التصوف الفيلونى.

## ثالثًا ـ مصادر التصوف الفيلونى

### 1 ـ أفلاطون

إن فلاسفة اليونان الأفلاطونيين والمشائيين انقسموا حول هذين المذهبين فى ارتباط النفس بالجسد. فالأفلاطونيون يسيرون مع أفلاطون الذى يصور وجود النفس فى الجسم بوجود الربان فى السفينة، والمشائيون

(1) Ibid: chxxxviii, 114, p 377.

ينحو نحو أرسطو الذى يرى أن النفس تتصل بالبدن اتصالًا جوهريًا، كاتصال الصورة بالمادة، أى اتصال غير عرضى[1].

وبناء على هذا التقسيم فإن فيلون انحاز إلى التيار الأفلاطونى فالنفس عنده كما شبهها عند نوح ـ المبدأ البار ـ القائد البار الذى يقود السفينة نحو الخلاص، على اختلاف العقل الطاغية الذى يقود النفس نحو الهلاك[2].

ناهيك عن أن فيلون قد استعار التشبيه الأفلاطونى الذى يرى أن الجسد سجن النفس حيث رأى أفلاطون بشكل أسطورى أن النفس نقطة اتصال بين عالمين هما: عالم المثل أو المعانى الثابتة الدائمة الذى هبطت منه، وعالم الحس أو الجسد الذى تحاول الخلاص منه كما يحاول السجين الفرار من سجنه[3]. وأن ما تشعر به الروح فى أثناء وجودها فى الجسد رغبة أو خشية أو ألم ولذة ليس راجعًا إلى طبيعتها الحقيقية، وإنما إلى شعورها بأنها سجينة، وإلى رغبتها عن البقاء فى سجنها، وإلى عجزها عن الفرار منه. وإن كانت النفس عاجزة عند أفلاطون للفرار من الجسد فإن النفس ـ الروح ـ يكمن خلاصها عند فيلون كما قرر فى ضبط النفس والفرار من الجسد وقد استطاعت النماذج التى قدمها فيلون من الفرار من السجن ـ الجسد. لقد قرر أفلاطون واجب النفس والتى أكرهت على الهبوط إلى أحد الأجسام أن تعمل ما استطاعت على تطهير نفسها من الأدران التى تلحقها بسبب وجودها فى ذلك السجن الذى يعد قبرًا لها. وليس للنفس أن تندب حظها. فلئن كانت نفسه، بهبوطها من حياتها السماوية، فما عليها إلا أن تخفف من

(1) د/ محمود قاسم: فى النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، القاهرة، 1969م ص 150.

(2) Philo: Allegorical interpretion 111, chxxvi, 82, p 355.

(3) د/ محمود قاسم: المرجع السابق ص 34، وانظر أيضًا أفلاطون: الجمهورية ـ ترجمة د/ فؤاد زكريا ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، الكتاب العاشر.

سوء حظها بالعمل الصالح فى أثناء هذه الحياة الدنيا، حتى تعود مطهرة إلى سمائها[1].

وإن كان هذا الرأى ذا مسحة دينية تتساوى مع ما جاء به الدين السماوى إلا أنه يقرر استحالة تخلص النفس من الجسد. وكل ما يمكن أن تقوم به عملية تلطيف وتخفيف، وإن كان فيلون قد تأثر بهذه المسحة إلا أنه يسخرها تسخيرًا دينيًا كاملًا حين يقرر خلاص النفس خلاصًا نهائيًا من الجسد وتحول هذه الأنفس إلى عقول إلهية. أو أنه يفرض طريقًا خاصًا للمؤمنين الخلص الذين يستطيعون أن يتخلصوا من شهواتهم.

**2 ـ الكلبية**

إن الزهد عند الكلبية ممثلة فى شخص «انتستين»[2] يتجسد فى الجانب العملى، أعنى، السلوك، وليس النظر، لا يحتاج إلى هبة إلهية أو علم إنما هو ثمرة التعود والممارسة Askesis. وهذا الطريق هو الطريق الوحيد إلى السعادة، وهو الطريق الذى لا يجب أن نلقى به مهما كانت الأحوال، وأن علينا أن نخص أنفسنا بأسوار قوية من الفضيلة[3]. حقًا إنها دعوة زهد تفضى إلى عدم الاكتراث بما فى الحياة أو عدم الاهتمام. أعنى أن المذهب الكلبى يرتكز على جانبين الأول: اللذة كمصدر للشرور والرذيلة، والثانى: محاولة ضبط النفس السلبى.

وقد اتبع فيلون ذلك المذهب الذى يرى أن اللذة مبدأ الشرور، واتبع أيضًا مجاهدة النفس، ولكن ليس من جانب سلبى.

---

(1) د/ محمود قاسم. المرجع السابق، ص 36.

(2) انتستين Antisthenes: هو تلميذ مباشر لسقراط وكان على الخصوص، تلميذًا للسوفسطائيين، وخاصة حورحياس وربما تتلمذ على «ويقريقرطس» وكان لا يزال حيًا، فيما يبدو، سنة 366 ق.م. البير ريفو: الفلسفة اليونانية أصولها وتطوراتها، ترجمة د.عبد الحليم محمود، أبو بكر ذكرى، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 1958، ص 113.

(3) ألبير ريفو: الفلسفة اليونانية أصولها وتطوراتها: ص 114.

ورغم هذه المسايرة أو الأتباع، إلا أن ذلك لا يعنى المعية، لأن منهجية المعالجة قد اختلفت، لأن الكلبية فى زهدها تطرفت فى كبح اللذة، بأمثلة من شواهد تاريخ الفلسفة، وهو يضع صورة للفيلسوف الكلبى تعنى ضمنًا عدم الاكتراث ـ أشعث أغبر، لحيته مرسلة، وشعره منفوش، لا بيت له، ولا يثقل كاهله بأى متاع يفيض عن الحاجة، لا مهنة له، وهو يهب أمواله، ويكتفى بطلب كسرة خبز عند الجوع[1]. وقد عكس فيلون هذه الصورة من الزهد فى عبارة مؤداها: أن ما نجده من سلوك احتقار من سكان المدينة، برفضهم الأشياء، ما هو إلا ممارسة دجل Imposture، ويظهرون للعديد أنهم محبون، ولكنهم واقعون فى شرك الحقارة[2].

إن الذين يزاولون هذا الزهد ـ الكلبيون ـ يحاولون تجاوز حدود الحياة الفانية، واتخاذها حجة للفراغ، والراحة لم يكسبوها بغير هذا الطريق. ذلك لأن الفضائل التى يتظاهرون بها لا يمكن أن تعرف إلا فى أعاصير الحياة العاملة. فكيف نعرف هل أتت حقيقة تحتقر الثروة، إذا كنت لا تستعملها؟ وكيف نعرف إذا كنت إنسانًا ودودًا لطيف إذا كنت تعيش على هامش المجتمع؟[3].

وحول فيلون هذا النقد لخدمة فكره الدينى نحو إقامة تصوف حقيقى قائم على الدين لا على الذات كما هو عند الكلبيين، فكل من المجاهدة وضبط النفس والفرار كانت مفاهيم تسعى إلى معرفة موجود أسمى هو الله أى أنها تسعى للخلاص، شىء لامتناهى، أما الكلبية كما اعتقد فيلون ما هى إلا مظهر من مظاهر الحياة التى تفضى إلى عدم الاكتراث بملذات الحياة، بعبارة أخرى إن فيلون حول مفهوم عدم الاهتمام الكلبى إلى اهتمام نحو تصوف قائم على الدين.

(1) نفس المرجع ص 114.
(2) أميل برهيية: الأراء الدينية والفلسفية لفيلون السكندرى. ص 215.
(3) د/ أميرة حلمى مطر: الفلسفة عند اليونان. ص 386.

### 3 ـ الأبيقورية

يعتبر تصوف فيلون رد فعل للأبيقورية التى ارتكزت على جانبين أيضًا الأول: تتبنى فيه نظرية عن اللذة تفضى إلى نزعة حسية فى المعرفة، والأخر النزعة المادية فى الطبيعة تنتهى فيه إلى الخلو من الهموم والوصول إلى حالة «الأتراكسيا» التى يبلغها الفيلسوف عندما تتوفر له الرؤية العقلية الصحيحة عن الأشياء[1].

إن أبيقور يقول: إن مقياس الخير هو اللذة ومفارقة الألم، وهذا شىء لا حاجة بنا إلى البرهنة عليه، فالطبيعة فى كل أنواع ـ سلوكها تكشف عنه. وإذا كنا فى حاجة إلى البرهنة، فيكفى أن نشاهد سلوك الإنسان فى كل أدوار حياته من ميلاده حتى الموت، فإنا سنجد قطعًا أن الإنسان يرمى دائمًا إلى تحصيل اللذة وتجنب الألم،فالأصل إذًا فى كل أخلاق خيرة أن تتجه نحو تحصيل اللذة والابتعاد عن الألم[2].

لقد تبنت الأبيقورية مفهوم اللذة، وجعلت اللذة مفهومًا مستقرًا أو ساكنًا، ومخالفة لذلك يرى فيلون «أن هذه اللذة لا وجود لها، لأنها تتعامل مع اللذة ككائن ميت، وقد رأينا أن اللذة عند فيلون هى كائن حى[3]. وهذه اللذة بهذا المفهوم قد تبلد الإحساس أو تمحوه محوًا تامًا»[4].

وعندما تحولت الأبيقورية من الموضوع إلى النقيض، أعنى، من اللذة إلى شجبها على يد «ديون خريزستوم» بعد نصف قرن، نجد فيلون يتفق مع ما جاء به «ديون» من أن اللذة من أعداء الإنسان، فهى الوحش الأشد مراسا

(1) د/ عبد الرحمن بدوى: خريف الفكر اليونانى ص 61-60.
(2) نفس المرجع ص 114.
(3) Philo: Allegorical interpretion 111, chliv, 160, p 407.
(4) Ibid: chlxiv, 183, p 425.

من الجميع، الماكر الدقيق وهى تجعل الإنسان وحشًا. كما جاء فى خرافة سيرية لهوميروس، إنها متنوعة ومتعددة الأشكال، فيجب الفرار منها إلى أبعد مدى ممكن، ومما تجدر ملاحظته أن الفرار من اللذة فى نظر فيلون، هو فى الوقت نفسه فرار خارج العالم المحسوس، وبذلك وضع فوق المذهب الكلبى مذهبًا متعلقًا بالمعرفة التصوفية[1].

ولا يعنى ذلك أن هناك توافقًا ما بين الأبيقورية وفيلون فكلاهما يعبر عن اتجاه معاكس للأخر. فالأولى تعبر عن مذهب اللذة الأنانى، حيث يقوم بتقييم السلوك من خير وشر، صواب أو خطأ بالقياس إلى الفاعل، أى على مقدار ما يجلبه الفعل من لذة أو ألم للفاعل شخصيًا، فالذاتية أو الأنانية[2] Egoism هى بمثابة شهوة جامحة فى حب الذات أو مغالاة فى تقديرها. هذه اللذة أنكرت الكليات[3]، وكل ما للإنسان من غاية هو اللذة الحسية الفردية[4].

وصحيح أن فيلون اتفق مع «ديون» فى تطوره الفكرى نحو كبح اللذة أو الفرار منها أو نبذ مبدأ الأنانية أو الأثرة، أعنى، أنه اتفق معه حين أحل الإيثار محل الأثرة، إلا أن فرار اللذة عند «ديون» لا نعرف له نهاية، هل هذا الفرار خوفًا من الألم، وإن كان كذلك، فلا يعد ايثارًا، وإن كان غير ذلك فهو يعد ايثارًا مقياسًا بفيلون عندما وضع نهاية للفرار وهو ملجأ الله، أو فناء المتناهى فى اللاتناهى.

---

(1) اميل برهبية / المرجع السابق ص 334.

(2) د/ حربى عباس عطيتو. ملامح الفكر الفلسفى عند اليونان. ص 364.

(3) انظر للباحث رسالة ماجستير غير منشورة بعنوان مفهوم المعنى الكلى عند أفلاطون وأرسطو وأثره على وليام الأوكامى. بكلية الآداب. جامعة المنيا. 2003 حيث يناقش فيها بعض المذاهب التى تنكر الكليات كالسوفسطائية التى تعد اتجاه سلبى نحو تطور هذا المفهوم ص 19.

(4) Diogeon Lartus, Lives of Eminent philosophers,2vol,Translated by T.D. Yock, Harvared univeresity press, Cambridge, 1972, 11, 66.

وبعيدًا عن هذا كله، إن الأثر الأعظم على فيلون من الأبيقورية يظهر من رأى أبيقور الذى مؤداه «أن الإحساس متى تكرر أحدث فى الذهن معنى كليًا أثبتناه فى لفظ. ولما كان هذا المعنى الكلى صادرًا عن الإحساس، فهو صورة حقيقية مثله وبعد أن يتكون يبقى فى الذهن «فكرة سابقة» نطبقها على الجزئيات كلما عرضت لنا فى التجربة. فهو يسمح لنا بأن نسأل مثلا: هذا الحيوان الماشى أهو فرس أم ثور؟». وهو الذى يسمح لنا بأن نصدر أحكامًا تجاوز التجربة الراهنة[1].

أخذ فيلون هذا المضمون الأبستمولوجى وسخره فى عبارة مؤداها. إذا رأيت شىء جميل وأصبحت أسير هذا الجمال حتى يكون سبب عثرة لك، فإنك تهرب من هذا المنظر دون أن يعلم بك أحد، ولا تجعل عقلك يفكر مرة أخرى بهذا الشىء، لأن التفكير المستمر فى شىء يجرح العقل، ويأتى به إلى الدمار[2]. وهذه العبارة تعنى ضمنًا أن المعنى الكلى عند فيلون قد يكون سلاحًا ذا حدين، إما أن تكون مسايرته مشجعًا للشهوة حيث تختزن الخبرات السيئة فى العقل فتقود نحو الرذيلة فتمدمرة، وإما أن تقوده نحو التأمل أو تقويم الحياة الباطنية، حيث تختزن النماذج الزهدية فى الذهن وتكون مشجعًا لتكرار هذه النماذج. التى تختزن فى الذاكرة، لأن الذاكرة بمثابة الوعاء الذى يحتفظ بكل الأشياء، وللإنسان قدرتان، القدرة الأولى الذاكرة، والثانية قدرة التجميع، تأتى الذاكرة فى المرتبة الأولى، والتجميع فى المرتبة الثانية، ويمثل الذاكرة «أفرايم»[3].

ونهاية إن ما ذكر من أثر أبيقورى فى تصوف فيلون قد واجه اتفاق واختلاف، صحيح أن الأبيقورية دعوة للذة، ولكن فيلون لا ينكرها، فالرغبة

(1) أ/ يوسف كرم. تاريخ الفلسفة اليونانية. ص 215 - 216.

(2) Philo: Allegorical interpretion 111, chv, 16, p 311.

(3) Ibid: ch xxix, 91, p 363.

عون مفيد للحياة بشرط أن تكون مقصورة على ضروراتها، وبشرط ألا تضطر العقل إلى الحكم بأن موضوعات الشر هى خيرات، وصحيح من جهة ثانية أنه اتفق مع «ديونS فى كبح اللذة والفرار منها، إلا أن فرار «ديونS كان فى الذات، وفرار فيلون كان نحو اللامتناهى، وصحيح من جهة ثالثة، أن أبيقور أوعز بنظرية للمعرفة لفيلون ـ المعنى الكلى ـ إلا أن فيلون جعل لها مسارين الأول: نحو الرذيلة، والأخر: نحو الفضيلة.

**4 ـ الرواقية**

اتبع فيلون النظرية الرواقية فى تعريفه الرغبة ـ الشهوة ـ حيث تتولد الرغبة فينا بلا قصد، وهى الشىء الذى يبدو لعقلنا أنه جيد، وأن من تسيطر عليه الرغبة يبدو متعطشًا للمزيد. هذه الرغبة تشغل المرتبة الأولى من الشهوات لأنها وحدها التى تأتى من داخل النفس، بينما تأتى الشهوات الأخرى من الأشياء الخارجية، وهى تفرض على النفس عذاب تنتال Tantale، وهى سبب الآلام والضغائن العائلية والمناقشات الداخلية والحروب[1].

وإذا كانت الرواقية نزعة مادية صرفة، إلا أن اتجاههم المذهبى الأخلاقى العام يميلون إلى الزهد على النحو الكلى[2]. هذا الزهد الناتج عن عدم الاكتراث. أو أنه زهد قائم على اللامبالاة التى ترى أن العالم خاضع للضرورة أو للقضاء والقدر. ولكن تلك الضرورة ليست عمياء، بل هى قانون «اللوجوس» فكل شىء دبرته العناية على أحسن ما يكون[3]. ولا مجال للتحدث عن الحرية بمعنى الخروج على ما تقتضيه الطبيعة فسواء رضى الإنسان أو لم يرض، فهو لا بد سائر بحسب ما تقتضيه الطبيعة. والأحمق

(1) Philo: The Decalouge, chxxviii, 142-153, pp 17-83.

(2) د/ عبد الرحمن بدوى: خريف الفكر اليونانى. ص 38.

(3) د/ عثمان أمين: فلسفة الرواقية ص 156.

والحكيم كلاهما يسيران إلى نتيجة واحدة، أما الفارق بين الأحمق أو الجاهل وبين الحكيم، فهو فى موقف الحكيم بالنسبة إلى الأشياء الطبيعية وأحداث الكون، وموقف الجاهل من هذه الأشياء، أما الحكيم فيعلم طبيعة الأشياء وتبعًا لهذه الطبيعة يسلك بأن يوفق بين حساسيته ونيته وحالته الباطنة، وبين ما تقتضيه طبائع الأشياء، فيحدث نزاع بين حساسيته وبين عقله، ولكن على الرغم من هذا النزاع فإن العمل الخارجى هو دائمًا ما تقضيه طبائع الأشياء[1].

ويعنى ذلك أن الزهد الرواقى كائن فى عدم الاكتراث بما هو موجود أو بعبارة أخرى، هو مسايرة الطبيعة بما تقتضيه، وقد استعار فيلون فى زهده واضعًا صفة جديدة له وهى الفرار من الملذات، لأن عدم الاهتمام ـ عدم الاكتراث ـ على هذا النحو شرط السعادة والحياة الفاضلة، كما أن الخبز والماء هما شرطا الحياة العادية[2].

ولم يقتصر التأثير الرواقى على فيلون على هذه المسألة فحسب، إنما يظهر التأثير الحقيقى فيما شرحناه من قبل عن وحدة الوجود عند فيلون.

صرح الرواقيون بأن الله والطبيعة شىء واحد، هو تجلى العقل الكلى «اللوجوس». والكون هو تطور العقل الجرثومى الذى هو كالبذرة الأصلية للأشياء، وذهب الرواقيون مع هيرقليطس إلى أن اللوجوس نار أو نفس، وإذن فهو مادى، ولكنه مادة عاملة ذات مقاصد وغايات، والجوهر عند الرواقيين روح ومادة متحدتان اتحادًا كاملًا فهو مادة روحية أو روح مادية[3]. ومن هذا المنطلق برر فيلون أخذه بنظرية وحدة الوجود الرواقية. حيث إن المذهب الرواقى بهذا الشكل يعد مذهبًا واحديًا وليس ثنائيًا، فنفس الله

(1) د/ عبد الرحمن بدوى. المرجع السابق ص 40.

(2) Philo: Allegorical interpretion 111, chxl iii, 129, p 387.

(3) د/ عثمان أمين: المرجع السابق ص 155– 156.

وجسمه لا يفترقان، وجميع عناصر العالم مظاهر فى النار الأولى. فمن النار التى هى لوجوس نشأ كل شىء وإليها يعود كل شىء لينشأ نشأة جديدة. ولكن أخذه بهذه النظرية لم يجعله كالرواقية. لأن خلق الأشياء من النار والعودة إليها يقضى على نظرية أزلية العالم عنده. إنما أخذه لهذه النظرية اقتصر على اللب ـ جعل واحدية بين الله ممثلًا فى النار عندهم والعالم ـ أى أنه جعله خادمًا لله الخالق من المنظور الواحدى اليهودى.

**تعقيب**

رغم إيمان فيلون بالفعل اليونانى وما وصل إليه من استنتاجات، إلا أن هذا العقل عجز عن إدراك اللامتناهى حيث يصفه فيلون باليقين الإلحادى وصل إلى ذلك من خلال حالة تصحب أى تصوف، إن المعرفة اليقينية عند فيلون هى المعرفة الحدسية التى يتحد فيها الإنسان مع الله أو فيما نطلق عليه بوحدة الوجود، تلك الوحدة التى استخلصها فيلون ممن سبقوه، هنا نرى تحولًا للوحدة من الإطار النظرى الفلسفى مذهبًا عمليًا مبنيًا على الدين، ورغمًا من صعوبة الوصول إلى هذه الوحدة إلا أن الحكماء يمكن أن يصلوا إليها لأنهم أصدقاء الله كإبراهيم وموسى وإسحاق وهؤلاء قد وصلوا إلى هذه المعرفة لأنهم تخلصوا من السجن البشرى ـ الجسد.

ولا يعنى ذلك أن المعرفة قصرًا على أصدقاء الله فحسب، إنما يمكن للبشر أن يصلوا إلى وحدة الوجود عن طريق الزهد والمجاهدة، وقد يأتى ذلك بهجر اللذة والرغبة والمتعة، تلك المصطلحات التى حددها فيلون وميز بينها، وهذا التمييز من جانبه جاء رد فعل للمادية الرواقية، فاللذة عند فيلون هى عبارة عن حية تتميز بالحياة وهجرها يتم بحية مضادة لها وهى الفضيلة ـ الحية البرونزية، وأوضح فيلون منهجية تبنى الحية البرونزية، ضبط النفس، ثم يأتى فى المرحلة الثانية الفرار أو الهروب، وأخيرًا العزلة.

حاول فيلون فى تصوفه أن يدمج بين التصوف اليونانى رغم إلحاده وبين تصوفه كتجربة دينية ذاتية، ونجد عنده التيار الأفلاطونى، حيث إن الجسد سجن النفس، والتيار الكلبى التصوفى حيث محاولة ضبط النفس السلبى، وهجر اللذة، أو فيما يطلق عليه عدم الاهتمام الكلبى، والتيار الأبيقورى عند «ديون»، والتيار الرواقى فى تعريف اللذة والشهوة.